درب الحج البري المصري دليل على التواصل الحضاري " دراسة أثرية في ضوء الاكتشافات الحديثة "

أ . سامي صالح عبد المالك
المجلس الأعلى للآثار ـ منطقة آثار سيناء

كان درب الحج البري المصري بصفة عامة محط أنظار العديد من الباحثين في مجال التاريخ و الآثار الإسلامية ، و لكن أغلب هذه الدراسات كان ينقصها التعمق في الأسباب والدوافع وراء ظهور وتطور هذا الدرب منذ دخول الإسلام مصر و بداية ازدهار طرق الحجيج ، و كذلك عدم التعمق في دراسة الرحلات و المصادر التاريخية و الاستفادة منها في تأصيل هذا الدرب ، يضاف لذلك عدم قيام أحد الباحثين من قبل بإجراء حفائر علمية منظمة يكون هدفها تاريخ محطات و منازل درب الحج المصري .

و لكن عملي بالمنطقة وفر لي القيام ببرنامج منظم عن درب الحج المصري بسيناء حيث بدأت بمشروع للمسح الأثري للدرب و تحقيق محطاته في المسافة ما بين قلعة "عجرود" إلي الشمال الغربي من مدينة السويس بمسافة ٢١ كم و حتى قلعة "العقبة" حيث قيام العالم الأمريكي اويت كومب بإجراء حفائر بها و الكشف عن القلعة.

ومن هنا ركزت على تطور الدرب منذ القرون الأولى للهجرة مروراً بالعصر الأيوبي خاصة أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث ازدهر هذا الطريق كطريق حربي للربط ما بين القاهرة و دمشق و تم تشييد قلاع عليه لحمايته و لعل أشهر هذه القلاع قلعة "صدر" "الجندي حالياً " بالقسم الغربي من الطريق بسيناء و قلعة "آيلة" "قلعة صلاح الدين بجزيرة فرعون " بخليج العقبة ، و تطور هذا الطريق المعروف في المصادر التاريخية باسم طريق "صدر و آيلة" بعد فتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م و أصبح يعرف بدرب الحج البري المصري و تم تعديل بعض المحطات بالطريق السابق ليكون أكثر استقامة و ذلك لاجتيازه في وقت أقصر حيث حلت محطة "وادي الحاج" المعروفة "بالقباب" محل محطة قلعة "صدر" " الجندي " علي طريق "صدر و آيلة" .

والحفائر العلمية المنظمة لهذا الدرب كانت أول بعثة أثرية حيث بدأت الحفائر بقلعة "نخل " المحطة الرئيسية و الهامة بسيناء و ذلك منذ سنة ١٩٩٣ م و حتى الآن حيث تم الكشف خلال ثلاثة مواسم عن تخطيط القلعة و بعض النقوش التي تشير إلى أعمال تجديد بالقلعة و نظام سقاية الحجاج ، و لعل أهم نتائج الحفائر هو ازدهار " نخل " منذ القرون المبكرة خاصة في العصر الأموي و العباسي و ليست كما نعرف في التاريخ في بداية العصر المملوكي.

يلي ذلك القيام بحفائر بالمنزل السادس بعد قلعة عجرود و هي محطة " لقريص " "بئر محمد" حيث بدأ العمل خلال شهر يونيه ١٩٩٨ م ، و تم الكشف عن نص تأسيسي ، يعتبر حتى الآن أقدم النقوش المعروفة عن درب الحج البري

المصري ، كما أنه أضاف اسم سلطان جديد لم يكن معروفاً نهائياً لمن تصدى بالكتابة لهذا الدرب ، وهو السلطان المملوكي زين الدين كتبغا المنصوري(٦٩٤ ـ ٦٩٦ هـ / ١٢٩٤_١٢٩٧ م)، كما أنه أضاف مسجد جديد للمساجد الأثرية المعروفة في سيناء ، و أضاف منشأة أخرى و هي البئر حيث يعتبر ثاني نص تأسيسي يشير إلي بئر بعد النص التأسيسي لبئر " الوطاويط " الذي يرجع للعصر الإخشيدي و ذلك في مصر الإسلامية يضاف إلى ذلك تعديل في بعض قراءات بعض النصوص السابقة المعروفة مثل نقش السلطان الغوري بدبة " البغلة " "رأس النقب حالياً " ، و نقش السلطان الناصر محمد بن قلاوون برأس النقب ، و نقش السلطان حسن بوادي الحاج .و سأحاول أن أبين الأسباب التي كانت وراء ازدهار طريق " قوص - عيذاب " هي الأسباب التي كانت وراء هجرة درب الحج البري عبر سيناء ، و بزوال هذه الأسباب عادت الحركة لدرب الحج البري مرة ثانية . و سأحاول إبراز مميزات هذا الدرب من الناحية الدينية والاقتصادية و الاجتماعية و انعكاسه على المنطقة ، و أن هذه الطرق كانت بمثابة عنصر أساسي للربط ما بين الدول الإسلامية و دليل وحدتها و قوتها .